

العصر الوسيط الجديد وتداعياته على النظرية والممارسة في العلاقات الدولية

الدكتور عادل زقاغ

أستاذ محاضر "ب" بقسم العلوم السياسية

جامعة الحاج لخضر باتنة

Abstract:

The Post-cold war developments make Hedley Bull's "Neo-medievalism" prevalent in IR literature. This article examines the extent to which similarities may be found between the ancient and actual middle ages. Upon the definition of Neo-medievalism as "a system of overlapping authority and multiple loyalties, held together by a duality of competing universalistic claims" between both supra-state sub-state constituencies, I will address the empirical evidence sustaining that presumption. The study concludes by considering two patterns: The erosion of hierarchy and the waning role of systemism as "Chaos" and "Non-linearity" take advantage.

الملخص:

ساهمت ظروف ما بعد الحرب الباردة في تزايد الاهتمام بتصوير "العصر الوسيط الجديد" الذي صاغه "هدلي بول" في سبعينيات القرن الماضي، وذلك لوصف حالة النخر الذي تتعرض له سيادة الدولة وانتشار مظاهر متعددة للعنف، ونظرا لقوة الحجية التي يبتناها هذا الطرح، فإن ذلك يدفعنا باتجاه فحص تداعيات "العصر الوسيط الجديد" على صعيد النظرية والممارسة في العلاقات الدولية. في إطار هذا المسعى سيتم استعراض المؤشرات التي استند إليها هؤلاء الباحثون في وصفهم المرحلة الحالية بأنها عصر وسيط جديد ومدى وجود اثباتات إمبريقية تؤيد هذا الطرح، الذي يسلم بوجود "تداخل لسلطات متراكبة وولاءات متعددة تتفاعل فيما بينها في ظل ثنائية من الادعاءات المتنافسة بالشرعية" لمكونات النظام الدولي التي تقبع فوق supra وتحت sub السلطات الإقليمية لحكومات الدول. ومن هذا المنطلق، فقد تمت الاستعانة بتصوير الهيكلية لتوضيح جوانب التقارب المحتملة بين العصر الوسيط الأول والحالي "المفترض". حيث توصلت هذه الدراسة إلى أنه يمكن استشفاف ملامح العصر الوسيط الجديد أساسا في تآكل ملامح الهيكلية وتراجع قدره "النظمية التقليدية" على تزويدنا بفهوم متكاملة أمام بروز كل من خاصيتي "الكاوس" و"اللاخطية".

مقدمة:

يعتبر "هيدلي بول" Hedley Bull أول من استخدم مصطلح "العصر الوسيط الجديد" New Medievalism أو "القروسطية الجديدة" في كتابه "المجتمع الأناركي" الصادر سنة 1977، وذلك لوصف حالة النخر الذي تتعرض له سيادة الدولة وانتشار مظاهر متعددة للعنف¹. لم يكن لهذا التصور أن يحظى بالترحيب حينها طالما أن الدولة الوستفالية كانت تبدو متماسكة في ظل الحرب الباردة، هذه الفترة التي أناطت للدولة أدوارا جوهرية. إلا أنه وبعد عشرين سنة من نشر كتاب "بول"، أعادت "آن ماري سلوتر" Ann-Marie Slaughter إحياء النقاش حول الموضوع في سياق تراجع دور الدولة أمام تنامي أدوار فاعلين آخرين. فكيف أثرت خصوصيات العصر الوسيط الجديد على صعيد النظرية والممارسة في العلاقات الدولية؟

سيتم من خلال هذه الدراسة استعراض المؤشرات التي استند إليها هؤلاء الباحثون في وصفهم المرحلة الحالية بأنها عصر وسيط جديد، وفحص مدى وجود اثباتات إمبريقية تؤيد هذا الطرح، حيث وبعد التعرض للبديل التصوري الليبرالي، سيتم تبيان الأسباب التي تدفع باتجاه نزوع عدد من الباحثين في العلاقات الدولية نحو التمسك بتصوير "العصر الوسيط الجديد". وبعد استعراض أهم خصائص هذا العصر، سيتم الاستعانة بتصوير الهيراركية لتوضيح جوانب التقارب المحتملة بين العصر الوسيط الأول والحالي "المفترض".

1 - العصر الوسيط الجديد: البديل التصوري الليبرالي:

في عالم معولم، حسب الباحثة "سلوتر"، لا تبدو العلاقات الدولية نتاج تفاعل الدول وحسب، بل محصلة خطوات يبادر بها فواعل آخرون يتموقعون ضمن حيز السلطة الإقليمية للدولة وأحيانا خارجها، وتضيف "سلوتر" أن البديل الوحيد لهذه الوضعية، حيث تداخل الصلاحيات وتفريغ الدولة من محتواها [وبالتالي شكل من أشكال الفوضى] هو تجسيد افتراضات "المقاربتين الليبرالية-التدويلية" Neo-Liberal-Internationalism والليبرالية-المؤسسية Neo-Liberal-Institutionalism والمتمثلة في: ترسيخ مبادئ الحرية والديمقراطية؛ وتفعيل المؤسسات الدولية، وتجهيزها بتفويض يمنحها القدرة على حل المشكلات العالمية². تعتبر الوصفة الليبرالية عموما إحدى البدائل التصورية التي تم تسويقها من طرف رواد "الباراداييم العقلاني" في العلاقات الدولية لتجاوز حالة الغموض التي قد تلقي بنا في "عصر وسيط جديد"³.

لتوضيح وجهة النظر الليبرالية يمكن الاستشهاد بمقولة لـ "بيتر ثيل" Peter Thiel، رجل الأعمال الأمريكي الليبرتاري [أي أكثر التيارات الليبرالية تطرفاً]،⁴ من أن "باي بال" Paypal و"فايس بوك" Facebook هما بمثابة أداتين فعاليتين في مسعى ترسيخ الحرية الفردية وتسهيل حركة رؤوس الأموال دون رقابة الحكومات والبنوك المركزية بالنسبة للأولى؛ وإنشاء مجموعة تفاعلية عابرة للحدود تتجاوز قدره الحكومات [على التوجيه والرقابة] بالنسبة للثانية⁵. تعتمد المقاربات الليبرالية بكل تفرعاتها على فرضية مفادها أن المكاسب المطلقة من وراء التعاون تستميل الدول أكثر بكثير من المكاسب النسبية المتأتية من التمسك بالحلول الانفرادية⁶. ومع تضاؤل "الليبراليين" بخصوص المسارات المحتملة التي ستفقدنا إليها عملية "اللبرلة" هذه، إلا أننا لا نلمس توافقاً بهذا الشأن في الحقل المعرفي للعلاقات الدولية، حيث تمنحنا ملامح النظام الدولي الحالي تبريراً كافياً للاعتقاد بأن العالم دخل فعلياً عصر وسيطاً جديداً قد يتمخض عن بروز كيانات سياسية جديدة وأفول أخرى. بالنسبة لأبرز مؤيدي هذا الطرح: "يورغ فريديريكس"، فإن طرح "العصر الوسيط الجديد" باعتباره مفهوماً مستجداً في العلوم الاجتماعية ككل، ليس الهدف منه استعراض أحجية جديدة على باحثي الحقل المعرفي، أو رياضة فكرية، بل إنه تعبيري دقيق جداً عن حالة من الارتباك الناجم عن تحولات عميقة في عالم "وستفاليا" الدولاتي-التمركز⁷.

إن اللجوء للعصور الوسطى له ما يبرره، فقد كانت هذه الفترة من التاريخ الإنساني تتسم بكونها نظاماً من السلطات المتراكبة والولاءات المتعددة تتفاعل فيما بينها في ظل ثنائية من ادعاءات متنافسة بالشرعية بين الإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية. وبذلك فالهدف من تشبيه عالم ما بعد الحرب الباردة بعالم يتجه رأساً صوب "عصر وسيط جديد"، حسب "فريديريكس"، هو السعي للتغلب على العمى التصوري الذي وقعنا ضحايا له بسبب العادات العقلية القوية التي أكسبتنا أياها الحداثة، ومن ذلك التعلق بمنطق التقدم المستمر⁸.

2- خصائص العصر الوسيط الجديد؛

يتسم هذا "العصر الوسيط" في المقام الأول، ليس بتفكك العالم "الوستفالي" فحسب، بل بتشظيه إلى أجزاء متناثرة، ويتجلى ذلك في ثلاثة مظاهر أساسية⁹ :
- إعادة صياغة الأقاليم، ومجالات الاختصاص الإقليمي بالاعتماد على معايير متداخلة تجمع بين المكونات الإثنية، والثقافية والدينية...¹⁰

- ظهور تحديات جديدة للنظام دولاتي-التمركز ولاحتكار الدولة للفاعلية في السياسة الدولية، هؤلاء الفواعل الجدد أصبحوا ينافسون الدولة في الاستحواذ على الشرعية وبالتالي الولاء¹¹.

- أصبح النظام الوستفالي في الوقت الحالي في ذرؤة تطوره (على الأقل باعتباره مساراً تاريخياً ممتداً) مليئاً بمظاهر ما قبل حداثة (التعصب القبلي، التطهير العرقي والمغالاة في التطرف الديني).

إن تعرض النظام "الوستفالي" للنخر يعود إلى انتشار خطابين متناقضين قوضا أركان الدولة الأمة حسب "بيتراند بادى" Bertrand Badie، وهما خطاب العولمة: حيث لم يعد مجدداً التثبث بالدولة بمفهومها التقليدي في ظل الإملاءات التي أضحت تفرضها المتغيرات الاقتصادية والتكنولوجية والمجتمعية، من جملة متغيرات عدة لم يعد للدولة سلطان الحسم فيها. ومن جانب آخر، هناك خطاب التفكك: ويرى بدوره أن الدولة لم تعد قادرة على تلبية تطلعات مواطنيها وبأن الانتفاخ حول مرجعيات محلية تقليدية (كالقبيلة والإثنية) كفيل بتحقيق مواطنة فعلية لا مواطنة بلاغية¹².

ينطوي خطاب العولمة حسب "لومان" Luhmann على نوع من اللاتساق، فهو لا يقدم لنا تفسيراً عما يساير هذه العولمة المزعومة من نزعات انغلاقية وصعود لثقافات محلية انعزالية. هذا الوضع أطلق عليه "رولاند روبرتسن" Roland Robertson مصطلحه الشائع Glocalization أي تجاذب بين نزعتين نزعة العولمة والنزعة المحلية، تنازع بين سلطات متراكبة ومتقاطعة وولاءات متعددة، وهو وضع لا يختلف كثيراً عما كان سائداً خلال القرون الوسطى¹³.

إذن، فالسرديات الناشئة حول "العصر الوسيط الجديد" تتفق بالأساس مع دعاة "العلاقات ما بعد الدولية" أي "السياسة العالمية" التي يصنعها عدو فواعل، ولا يكون الحسم فيها بالضرورة للدولة. قد يبدو من الوهلة الأولى أن عالمنا كهذا سيؤول إلى انتفاء للنظام Disorder بدل انتفاء للتراتبية Hierarchy المعهود منذ وستفاليا، لكن توصيفا كهذا بعيد عن الدقة، فالقرون الوسطى الأولى (في أوروبا) عرفت تداخلاً في السلطات والولاءات، إلا أن التنافس بين الإقطاع (المحلي) والكنيسة الكاثوليكية (كسلطة أسمى في هذه المنطقة من العالم) لم يقدر إلى حالة من انتفاء النظام، بل حدث توازن مستقر ولقرون عدة (في الإمبراطوريات والممالك القائمة) مما أفضى إلى استجماع مقومات النهضة في أوروبا.

تكشف الفترة التي تصاعدت فيها حدة العولمة (ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين) وجود بعض التماثلات بين العصرين، على أن الاستقرار المفاغى في الوقت الحالي [قياسا إلى تراجع دور العامل الناظم وهو الدولة] يعود الفضل فيه للتجاذبات بين طريفي نقيض، فالمواطن يسعى للاستفادة من مزايا العولمة لكنه بالمقابل يتمسك بالدولة لجمائته من سلبياتها. وبالتالي، فإن المبدأ الناظم في هذه الحالة هو التوازن المتأرجح بين النزعة الاقتصادية (مقتضيات السوق) والنزعة الاجتماعية (مقتضيات الكينونة)، والاختلاف بين "العصر الوسيط" الجديد والقديم هو أن النزعة الاقتصادية أصبحت قوة جذب فوقية خارجية بينما أصبحت النزعة الاجتماعية قوة جذب محلية. ومن هنا يمكن الوصول إلى توصيف "هيدلي بول" Hedley Bull الذي يتضمن ما مفاده أن عودتنا إلى "العصر الوسيط" ينطوي على "عصر وسيط" من نوع آخر، إنه "عصر وسيط" معلمن¹⁴ secularized .

3- بين نهضة إنسانية جديدة ومخاطر التتهقر لعصر ظلمات آخر:

يبين الجدول التالي مدى التشابه البنوي بين "العصر الوسيط" القديم والجديد، فهناك قوى جذب في كليهما تدعي كل منها الشرعية وتدعي كذلك امتلاك القدرة على تخلص الفرد من المشكلات الحياتية المختلفة (الإمبراطورية/الكنيسة، السوق/السياسة، المجتمع)، مع فارق أن العصر الوسيط الحالي يشهد صراعا -قواعد اللعبة فيه معلنة [حيث أن كلا من السوق والسياسة تستندان لأسس علمانية معلنة]. وإن كانت إرهاصات بروز الدولة- الأمة لوحظت مبكرا عندما كانت الإمبراطورية في آخر مراحل صراعها مع الكنيسة، فإن الصراع الحالي لا يبدو أنه سيفضي إلى خيار ثالث بمعالم واضحة، ومن هنا تتأتى شرعية التساؤل عما إذا كان العصر الوسيط الحالي سيقودنا إلى نهضة إنسانية جديدة كما كان عليه الحال مع العصر الوسيط الأول، أم أنه سيجعلنا نتتهقر إلى عصر ظلمات آخر على حد تعبير "فيل ويليمز" Phil Williams¹⁵ . والأسباب التي ينبني عليها هذا الطرح متعددة، منها:

- التلازم بين "العصر الوسيط" والعنف: ويعتبر مقال "روبرت كابلان" Robert Kaplan مرجعيا في هذا الخصوص، بحديثه عن الفوضى المرتقبة، واستعراضه صورة قاتمة عن المستقبل الإنساني بناء على معياناته لمؤشرات الحاضر في إفريقيا الغربية¹⁶ .

- الافتقاد للثبات في "العصر الوسيط" (لا شيء ثابت ليتم القياس بالرجوع إليه): فالارتباك الإنساني الناجم عن طول مدة فترة التحول قد تؤدي إلى التيه، فإذا لم يتمكن الإنسان من تفعيل العقل أو أي مزيج إدراكي آخر وتشكيل "باراداييم" مرشد، فإنه سيجد

العصر الوسيط الجديد وتداعياته على النظرية والممارسة في العلاقات الدولية
 نفسه وبديل الخروج من القرون الوسطى الجديد نحو النهضة، يتجه قدما نحو عصور
 الظلمات [حسب التقسيم الغربي للعصور] والسبب قد يكون أيضا انتفاء مصدر للشرعية
 بوزن الملك أو البابا خلال القرون الوسطى.

جدول يوضح الفروقات القائمة بين العصر الوسيط الأول والعصر الوسط الجديد.

العصر الوسيط الجديد	العصر الوسيط الأول	
ما نشهده حاليا هو إعادة إحياء واقع السلطات المتداخلة والولاءات المتعددة. والقوى الدافعة هذه المرّة تتجاذب الجميع عبر الادعاءات بامتلاك الشرعية والقدرة على تحقيق خلاص الفرد عبر سيادة الدول من جهة، وفعالية السوق الاقتصادية العالمية من جهة أخرى.	كان العصر الوسيط يتسم بوجود سلطات متداخلة وولاءات متعددة. هذه القوى الدافعة كانت تتجاذب الجميع عبر الادعاءات بامتلاك الشرعية والقدرة على تحقيق خلاص الفرد عبر السلطة السياسية (الإمبراطورية) أو من خلال السلطة الدينية (المسيحية).	موقع السلطة والشرعية في السرديات المتنافسة
أما بالنسبة للعصر الوسط الحالي فإن النواذ الاجتماعية للسرديات "السياسية" المتعلقة بادعاءات الشرعية فتتمثل في النخبة من صناع السياسة العالمية والبيرقراطيين "الدوليين".	النواذ الاجتماعية للسرديات "العلمانية" المتعلقة بادعاءات الشرعية في "العصر الوسيط الأول" تتمثل في الطبقة الاقطاعية الارستقراطية.	النواذ الاجتماعية للسرديات المتنافسة
النواذ الاجتماعية للسرديات "الاقتصادية" المتعلقة بادعاءات الشرعية في العصر الوسيط الحالي تتمثل في طبقة رجال الأعمال العابرين للحدود وهؤلاء بدورهم يتمتعون بحيوية كبيرة على مستوى قدرتهم على التواصل الاجتماعي، حيث لم يعد البعد الجغرافي يشكل عقبة بالطلق.	النواذ الاجتماعية للسرديات الدينية المتعلقة بادعاءات الشرعية في "العصر الوسيط الأول" يتمثل في طبقة رجال الدين المنضوين تحت قبة الكنيسة الكاثوليكية، حيث كانوا يتمتعون بحيوية كبيرة على مستوى التواصل الاجتماعي، ولم تكن العوائق الجغرافية تحد عزيمتهم.	عرايي السرديات الاجتماعية المتنافسة
كل من منظومتي الدولة- الأمة واقتصاد السوق تعتمدان على نخبة تستند إلى المعرفة، أي إلى مجموعة ابستمولوجية تتشكل من مثقفين ومؤلفين معروفين لدى العامة.	كانت السرديات الدينية في العصر الوسيط الأول تعتمد على التبولوجيا الكاثوليكية التي بشر بها مناصرون معروفون لدى العامة، والشئ ذاته لدى السرديات العلمانية المناوئة، وإن بدرجة أقل، سيما لدى "دانتى" Dante، "أوكهام" Okham، "مارسيليو" Marsiglio.	الأسس المعرفية للسرديات المتنافسة
الشرعيتان المتنافستان في العصر الوسيط الحالي (الاقتصاد والسياسة) تدعيان	لقد ادعت كلتا الشرعيتين المتنافستين خلال العصر الوسيط الأول بالتفوق، لكن	مآل السرديات المتنافسة

في النهاية انهارت كلتاها مضحة المجال أمام ظهور الدولة- الأمة.	بدورهما التفوق، وليس من الواضح ما هو مآل هذا التنافس.
---	---

المصدر:

Jörg Friedrichs, "The Meaning of New Medievalism", *European Journal of International Relations* 07 (04), 2001, p. 492.

لكن ما مدى واقعية هذا الطرح؟ يقول "فيل ويليمز" أن الدول، وفي ظل المخاطر المحدقة باستقرارها وبقائها (مثل: الإرهاب البيولوجي والنووي والأوبئة المدمرة) ونظرا للحساسية الحكومية المفرطة إزاء التهديدات الأمنية المستجدة، فإنها قد تلجأ لاتخاذ تدابير وقائية متشددة، والتي ستؤدي في مجملها إلى رفع "تكاليف إبرام الصفقات" Transaction cost، وبالتالي إبطاء النمو الاقتصادي، مما يساهم في إيجاد الظروف المناسبة لما يطلق عليه "ويليمز" عاصفة مثالية Perfect storm قد تعصف بإنجازات الإنسانية¹⁷. تتضح هذه الرؤية بجلاء في الحالة العراقية حيث كل الخيارات لم تكن لتحظى بنهايات جيدة؛

- عدم التدخل: كان سيترك نظاما مناونا للولايات المتحدة يستعيد قوته ويستمر في تهديد مصالحها [حسب وجهة النظر الأمريكية]؛

- التدخل: كان كارثيا بحيث أوقع الو.م.أ. في مستنقع شبيه بمستنقع فييتنام؛

- إدارة الصراع الداخلي على السلطة: التمكين للشعبة لتعزيز نفوذ لإيران العدو الأول للو.م.أ. في الشرق الأوسط [على الأقل في نهج بوش الابن]، أما التمكين للأكراد والسنة فسيؤدي إلى إضعاف السلطة المركزية وبالتالي إفشال "التحول الديمقراطي" المفترض، بل وحتى نفس محتمل لهذه الدولة. أما تقاسم السلطة فقد أظهر استقرارا هشا.

- الانسحاب: قد يغرق العراق في فوضى حرب أهلية من المحتمل أن تمتد لدول الجوار.

إن هذه السيناريوهات تظهر جدية المأزق الذي توجد فيه أقوى دولة في العالم، والأمر ينسحب على الدول الأخرى وإن بدرجات متفاوتة. لقد كانت الدولة كانت دوما أداءً لحل المشكلات، لكن ورغم فعاليتها، وعلى اعتبار أننا نعيش في ظل نظام يتجه نحو تعقيد بالغ، فإن هذا التحول يقودنا إلى البحث عن أداء تساهم في تفكيك الأحاجي لا في حل المشكلات. وتبرير ذلك أن المشكلات الآن لم تعد محددة وواضحة، تنتظر فقط انتقاء الحلول المناسبة وتسخير آلة الدولة لمعالجتها. حاليا نشهد تحولا عميقا، لم نعد نعرف فيه ما هي المشكلة بالضبط ولم نعد نستطيع التمييز بين التدابير التي تتيح لنا حل المشكلات من تلك التي قد تسبب في استفحالها، فالدولة "الوستفالية" بدت وكأنها تصميم ساذج أريد تسخيره لمهام معقدة، أما التحولات التي كان القرن الحادي والعشرين ميدانا لها، فقد

العصر الوسيط الجديد وتداعياته على النظرية والممارسة في العلاقات الدولية
أكدت الحاجة إلى تطوير رؤية متبصرة تستطيع تقديم أجوبة للمشكلات المطروحة والتي
أضحت بمثابة "أحاجي" Puzzles، وهذا ما سيتم توضيحه لدى التعرض للهيراركية في
العلاقات الدولية.

4- تآكل الهيراركية في العلاقات الدولية وإعادة توزيع الأدوار:

على صعيد الممارسة، أدت تحديات "العصر الوسيط الجديد" إلى بروز تساؤلا
واستفهامات بخصوص المسلمات التقليدية. على سبيل المثال، لم يعد نطاق العمل التقليدي
المرصود لأهم مؤسستين أمنيتين في أية دولة ثابتا، حيث تتكفل الشرطة بالحفاظ على
النظام العام Order، بينما يضطلع الجيش بصيانة السيادة والحدود الوطنية Borders¹⁸.
إذ أن التعاطي مع الجريمة المنظمة التي تقودها مافيا وعصابات أصبحت مهمة شاقة، ذلك
أنها، فضلا عن توجهاتها الربحية، أضحت تملك أجندة سياسية ومبررات دينية. أما
الحرب فلم تعد خيارا سياسيا مطروحا بالحدوث ذاتها التي كانت عليها في السابق، وأصبح
السياسيون يجدون صعوبة في مجرد التلميح بهذا الخيار، وبذلك فإن ما يحدث يعد بمثابة
تحول غير مسبوق في المشهد العالمي، يحيلنا إلى واقع ما بعد وستفالي؛ حيث تتحول الحرب
إلى ظاهرة داخلية، وجرائم النظام العام إلى ظاهرة دولية، والنتيجة أن وقعت المؤسسات
الأمنيتان في حالة إرباك. ومن ذلك أن الشرطة لم تعد قادرة على تسويق خطاب يستند
إلى السيادة يسوغ لها الاستمرار في أداء وظيفتها بالطرق ذاتها، دون التنسيق مع الأجهزة
الأمنية الخارجية. وبالمثل لم تعد الجيوش قادرة على تسويق خطاب يبنّي على صيانة
الحدود الإقليمية من أجل تبرير الاعتمادات المالية الضخمة المخصصة لها، وأضحت
تبحث عن مسوغات جديدة تكفل لها شرعية البقاء¹⁹.

أدت هذه التداخلات إلى صعوبة تحديد فضاءات العمل بدقة، لكن التعامل معها
بجدية وابتكارية في الولايات المتحدة وبريطانيا مثلا أوجد مشكلات جديدة، فالجرب على
الإرهاب، وتبني منطلق "هنتنغتون" "الغرب ضد البقية"، ساهم بمرور الوقت في ظهور
تمايزات اجتماعية داخلية، هي أشبه بحدود افتراضية من نوع خاص. في ظل هذه
التوليفة الأمنية الجديدة، فإن الأفراد المنتمين لأقليات إثنية معينة يستهدفون بسياسات
أمنية خانقة، بينما يحتفظ بقية الأفراد بمجال الحرية التقليدي، مما أوجد أيضا
تمايزات سوسيولوجية في مفهوم المواطنة: بين المواطن العادي والمهاجر والسائح والجيل
الثاني والثالث لأقليات لا تزال تربطها علاقات خاصة بمجموعات الشتات. إنه وبدل أن
تسهل هذه التمايزات الجديدة في التخفيف من وطأه الإحساس باللاأمن في دول الشمال
كما في بلدان الجنوب فإنها أرست الأسس لمسار متذبذب للأحداث يرتكز على المنطق

اللاخطي الذي يصعب توقع مساره أو ضبطه، وأمثلة ذلك الانتفاضات المفاجئة في المدن وبالأخص في الضواحي (نموذج باريس سنة 2005).

لقد أصبح واضحا أن بعض التوصيفات الشائعة لصناعة القرار لم تعد قادرة على الإلمام بهذه التحولات لأنها متواطئة مع يسميه "ديدي بيغو" Didier Bigo "الخطابات البيروقراطية" المتنافسة على المخصصات المالية بالاعتماد على تداول خطابات الخطر إزاء ظواهر قد لا تشكل مخاطر حقيقية، أو أنه تم تضخيمها بشكل فاضح مثل شبكات المافيا الدولية²⁰.

إن الممارسات السلطوية في السياسة العامة الأمنية كما في غيرها لا تخضع لهذا المنطق الاختزالي الذي يحاول إيهام "الفضاء العام" Public sphere بالتمايز الوظيفي بين الداخل والخارج، ذلك أن المخرجات السلطوية تناسب وفق منحى غير "هيراركي" Scale-free. إذ تناسب الظاهر السلطوية على المستوى العالمي (المعبر عنها بالحكومة Governance) والمستوى الوطني والمحلي كما يعبر عن التجاذبات بين النزعة المحلية والعمولة والمعبر عنها اختصارا بـ Glo-calization. فما يوجه مسار الأحداث في هذه الحالة أي في "نظام التعقد" Complex system هو التفاعل الشبكي حيث يتضمن التفاعل: الشركات المتعددة الجنسية والمنظمات غير الحكومية، المنظمات الدولية، الدول، النخب داخل الدولة الواحدة، الجماهير، أجهزة الإعلام وغيرهم.

لقد كان التفاعل في السابق يحدث وفق منطق "هيراركي" عبر تمفصلات عمودية، أما الآن فإن التفاعل لم تعد له نقاط تمفصل ثابتة أو عمودية مراقبة من قبل الدولة²¹. لذا فإن المقاربة للظاهرة الدولية بمنظور الصورة Image التي تقدمها لنا الخارطة وتجسمها بشكل مسطح لم يعد دقيقا، وهنا يفضل "روب والكر" و"ديدي بيغو" الاستعانة بتجسيم طوبوغرافي لا يساعد على الاستيعاب فحسب بل أنه يفسر بطريقة دقيقة عدم إمكانية الجسم في مواقع الثقل الرئيسية في العالم والتي تحرك الأحداث²²، هل هي: المجموعات الابستيمولوجية التي تصنع المعرفة، أم أنها المجموعة الدينية والعرقية والقبيلة التي تمثل وعاء روحيا للفرد بدرجات متفاوتة.

هذا هو جوهر النزعة التنظيمية الجديدة في نظرية العلاقات الدولية من خلال "نظام التعقد": عدم التسليم بأن النظام الكلي توجهه إحدى المستويات دون الأخرى، بحيث تقوض أركان النظرية مع كثرة الحالات التي تشذ عن القاعدة، وبدلا من ذلك المقاربة للظواهر باعتبارها تفاعلا بين أنظمة شبكية بمراكز ثقل وسلطة متجاذبة تناسب في مسار لانهاثي بالاعتماد على تمفصلات لا يمكن ضبطها من طرف الحكومات، إنها حوكمة

تأخذ كل المسارات التي يمكن تخيلها أعلى-أسفل والعكس، وتتقاطع بطريقة لن تتمكن معها من تحديد نقطة الانطلاق، فهذا النموذج أكثر تعقيدا من الحوكمة التي طورها الاتحاد الأوروبي. بل ويذهب "جيمس روزنو" إلى ما هو أبعد من ميدان السلطة وانسيابها لشرح وجهة نظره ليتحدث عن المعرفة التي تشرعن السلطة، وهنا يشير إلى عالمية العلم ومحلية المعرفة، وبتعبير أدق القوة التفسيرية لعدد من المنظومات المعرفية المحلية، مقابل فشل المعرفة العلمية العالمية التي تم توليدها بتوظيف أدوات ومناهج علمية، سيما عندما تعلق الأمر بتقديم استشارات وخبرات مثمرة لبلدان الجنوب في قضايا ترتبط بالتنمية أو بإرساء الديمقراطية²³.

خاتمة:

استند "هيدلي بول" و"يورغ فريديريكس" وغيرهما على التحولات المتسارعة وغير المتسقة أحيانا للدفاع عن طرحهما القائل أن العالم يتجه نحو تكرار صورة "العصر الوسيط"، فبينما جسد العصر الوسيط الأول تداخلا لسلطات متراكبة وولاءات متعددة تتفاعل فيما بينها في ظل ثنائية من الادعاءات المتنافسة بالشرعية بين الإمارات الإقطاعية على المستوى المحلي (بمطالبها الاقتصادية المعلمنة) والكنيسة الكاثوليكية على المستوى الامبراطوري (بخطابها الديني)، إلا أن العصر الوسيط الجديد يتسم بالخصائص ذاتها مع فارق واضح وهو أن ادعاءات الشرعية فوق supra- الكيان الوسيط (الدولة في هذه الحالة بدلا من الإمارات والاقطاعات في القروسطية الأولى) أصبحت مستمدة من خطاب معلمن secularised اقتصادي-التوجه بينما الداخلية sub- مستمدة من خطاب اجتماعي ذا مضمون هوياتي-ديني-ثقافي. مما توصلت هذه الدراسة أنه يمكن استشفاف ملامح العصر الوسيط الجديد على صعيد الممارسة سيما بدخول فواعل جدد يؤثرون في توجيه مسار العلاقات بين الدول بشكل أدى إلى تآكل ملامح الهيراركية التصورية، وبطريقة تضطر معها مساعي التفسير والفهم للعلاقات الدولية لأن تأخذ بعين الاعتبار التبصرات التي يمكن الحصول عليها من باراداييم التعقد، في خاصيته البارزتين الكاوس واللاخطية، وهذا في ظل تراجع قدره النظامية التقليدية على تزويدنا بفهوم متكاملة.

الهوامش:

1 - Hedley Bull, "The Anarchical Society: A Study of Order in World Politics" (UK: Palgrave, 1977).

2 - Anne-Marie Slaughter, "The Real New World Order", Foreign Affairs 05 (76), 1997, p. 183.

3 - Stewart Firth, "GlobAlisation and Governance in the Pacific Islands" (Australia: Australian National University, 2006), p. 18.

4 - "بيتر ثيل" من أشد مؤيدي المدرسة "الليبرتارية" Libertarian ذات النزعة الفردية التحريرية المناهضة لتدخل الدولة، وتكمن أهمية هذا الشخصية المثيرة في تسخير ثروته وموهبته في مجال الأعمال من أجل تجسيد أفكاره التحريرية، حيث يمتلك مجموعة "باي بال" PayPal المتخصصة في مجال الدفع الإلكتروني، كما أنه أول مستثمر يضخ أموالا معتبرة من أجل تطوير "فايس بوك"، وتقارب قيمة أسهمه حاليا في هذه الشركة الملياري دولار. أنظر:

Graeme Wearden, "Shareholder trading values Facebook at more than \$33bn", *The Guardian*, wednesday 25 August 2010. Retrived on: 05 april 2011.
<http://www.guardian.co.uk/technology/2010/aug/25/facebook-value-flotation>

5 - ينطلق الطرح الذي تقدم به "بيتر ثيل" من فكرة مفادها أن الديمقراطية في مضمونها وآلياتها الحالية لم تعد ملائمة لمسعى ترسيخ الحرية، فالديمقراطية والحرية أصبحتا عمليا متعارضتان، لأن حكم الأغلبية يتسبب في التضيق على حرية فئات كثيرة من المجتمع، أنظر:

Jacob Weisberg, "High-tech Hogwash: What's wrong with Silicon Valley Libertarianism", *Newsweek Magazine*, 18 october 2010. Retrived on: 05 april 2011.
<http://www.newsweek.com/2010/10/18/what-s-wrong-with-silicon-valley-libertarianism.html>

6 - Robert Gilpin, "Global Political Economy: Understanding the International Economic Order" (NJ: Princeton University Press, 2001), p. 379.

7 - Jörg Friedrichs, "The meaning of New Medievalism: An exercise in theoretical reconstruction", in Jörg Friedrichs, *European Approaches to International Relations Theory: A House with Many Mansions* (London: Routledge, 2004) p. 126.

8 - Ibid.

9 - Ibid., p. 129.

10 - أظهرت فترة ما بعد الحرب الباردة هذه الخاصية، حيث شهدت الخارطة الجيوسياسية حركية غير معتادة في العالم الثالث منذ إقرار الحدود الموروثة عن الاستعمار، فأدت الحركات الانفصالية separatist والإلحاقية irredentist إلى تراجع تطلع الشعوب نحو تشكيل دولة-أمة محاكاة للتجربة الأوروبية. ومن جانبها، فإن الدول الأوروبية أيضا توجهت قدما نحو صقل كيان سياسي (الاتحاد الأوروبي) لم تستطع هي ذاتها تحديد معالمه أو ما ترمي من وراء الدفع باتجاه تعزيز دوره، وهذه الحركية غير المسبوقة دليل على تراجع الثقة بقدره النظام "الوستفالي" على تأمين تطلعات الشعوب.

11 - فعليا يوحد عدد كبير من الفواعل الذين ينافسون الدولة في الشرعية والولاء كمحصلة لذلك، وقد تأتي هذه المنافسة من الداخل (زعماء القبائل في المنظمة الاجتماعية الإفريقية والآسيوية) وأحيانا من الخارج مثل المرجعيات الدينية في بعض المناطق (المرجعيات الشيعية الإيرانية بالنسبة لشعبة العالم).

12 - Jörg Friedrichs, op cit., p. 131.

13 - Ibid.

14 - العصر الوسيط لدى "هيدلي بول" يعتمد فيه على ملاحظات استقفاها هذا العالم المتميز خلال السبعينيات وتتمثل في: توجه بعض الدول نحو الاندماج؛ توجه دول أخرى نحو التفكك؛ توجه نحو خصخصة العتف الذي كان ملكا حصريا للدولة؛ تزايد نفوذ المنظمات الدولية عبر قومية؛ وأخيرا تحول العالم إلى كيان واحد بفضل التكنولوجيا. هذه العوامل مجتمعة أدت حسب "هيدلي بول" إلى تحول تدريجي نحو نظام شبيه بذلك الذي كان سائدا خلال العصور الوسطى. أنظر:

Jörg Friedrichs, op cit., p. 134.

15 - تكمن أهمية هذه الإشارة لـ"فيل ويليمز" في تضمينها كعنصر أساسي لتقرير قدمه للجيش الأمريكي جوان 2008، ورغم أنه يعتبر سيناريو الارتقاء في عصر ظلمات أحد السيناريوهات السيئة فحسب إلا أنه لا يستبعد ذلك بالنظر لعدم اتضاح الرؤية حول مسألة ضرورية، ما هي الخيارات الأنجع لتجاوز الانسداد الحالي، أنظر نص التقرير:

Phil Williams, 'From the New Middle Ages to A New Dark Age: The Decline of the State and US Strategy' (US: Strategic Studies Institute, 2008).

16 - Robert Kaplan, 'The Coming Anarchy', *The Atlantic Monthly Review* (February) 2004.

17 - Phil Williams, op cit., p. 36.

18 - Didier Bigo, 'The Möbius Ribbon of Internal and External Securities', in Mathias Albert et al., eds., 'Identities, Borders, Orders: Rethinking International Relations Theory' (University of Minnesota Press, 2001), p. 91.

19 - Didier Bigo, op cit., pp. 92-93.

20 - Ibid., p. 95.

21 - James Roseneau, 'Globalization and Governance: Bleak Prospects for Sustainability', in Alfred Pfaller and Marika Lerch, 'Challenges of Globalization' (Transaction Publishers, 2005), p. 212.

22 - ومع ذلك يعتبر "جيل دولوز" أول من دعا للاستعانة بهذا التصور من خلال دعوته الباحثين من المقاربة للأشياء من منظور الخارطة المسطحة إلى المقاربة لها من منظور الطوبوغرافيا، ذلك أن حدود الدولة ذاتها كتنصير خضعت لتحويل ويجب النظر إليها على أنها تخضع لمنطق مختلف ولعايير غير معهودة، أنظر:

R. B. J. Walker and Dider Bigo, 'Political Sociology and the Problem of the International', *Millenium Journal of International relations* 35 (3), 2007, p. 733.

23 - James Roseneau, op cit., p. 213.